



بليونش في الشعر المغربي

كثيرا ما نجد الشعراء يتغنون بالبلدان والأماكن ويبشونها ما يختلج في نفوسهم نحوها، وما تتركه من آثار عليها سلبا أو إيجابا، وهذا النوع من أغراض الشعر كثير عند القدماء والمحدثين، خصوصا في مدح مكة وطيبة وبيت المقدس، فقد حفظ لنا التاريخ قصائد ليست بالقليلة في هذا الشأن. والأمثلة على هذا النوع من الغرض الشعري كثيرة لا نثقل بها هذه الصفحات، ودراستنا هذه ما هي إلا ضرب من ذلك النوع، حيث سترصد ما قيل من أشعار عن قرية بليونش^(١)، قديما وحديثا، ولا تخلو مثل هذه المواضيع من فوائد جمة، سواء ما تعلق منها بالتاريخ أو الثقافة والاجتماع.



سفيان الحتاش - المغرب

الأندلس، وقد وجدت بقايا مونييا المرينين^(٢) التي كانوا ينزلونها للراحة والاستجمام.

ولا غرو أن تهوي أفئدة الشعراء إلى بليونش فيتنوا بطبيعتها البهية الحسن والمنظر، الجامعة بين الحسينين؛ طبيعة خلابة تجود بأنواع الثمار والمزروعات، وبحر بزرقته الصافية جواد على أهله بما تشتهي أنفسهم من أجود أنواع السمك والحيتان خصوصا «سمك موسى» المشهور في المنطقة.

فلقد هيجت مناظرها الخلابة، ومياهاها الغزيرة العذبة، ويساتينها الفيحاء، وجناتها الوارفة الظلال عواطف الشعراء الذين زاروها أو سكنوها كالقاضي

لقد وقع الاختيار على بليونش بالضبط نظرا لما تحتله من الصدارة في تاريخ الفتح الإسلامي؛ إذ نجد أن الفاتح الإسلامي موسى بن نصير قد أشرف على بلاد الأندلس من هذه المنطقة حتى سمي جبل في بليونش باسمه: «جبل موسى» كما أنها كانت مصيفا ومنتجما للوجهاء والأعيان والعلماء ورجال السياسة من أهل سبتة ومقصد راحتهم واستجمامهم، كالقاضي عياض، والشريف أبي العباس السبتي وبعض الأندلسيين كابن الخطيب، وبعض أمراء

لماذا بليونش؟

فلقد صدر حديثه عنها بأنها جنة، لكن طريقها كالصراط، فكما أن الجنة لا يدخلها إلا من جاوز الصراط فكذلك بليونش لا يتمتع بمناظرها الخلابة ونسيمها الرطب إلا من عانى مشاق طريقها وتكبد وعاء السفر إليها، وهو تأكيد المدح بما يشبه الذم كما يعرف في علم البديع.

أما أبو الحجاج المنصفي فقد أكثر من شعره في بليونش ومما قاله:

بليونش شكلها بديع

أفرغ في قالب الجمال

فيها الذي ما رأته عيني

يوما ولم يخطر ببالي

طريقها كالصُدود لكن

تعقبه لذة الوصال^(١)

جعلها جنة على جهة التشبيه الضمني، واقتبس من الحديث النبوي الشريف عن الجنة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». أما البيت الأخير فهو بيت القصيد هنا حيث يجعل طريقها صعبا ووعرا لكن يهون العناء ويفنى التعب حين يفوز القادم إلى بليونش بلذة الوصال.

ولقد خرج عن هذه الزمرة

المادحة لبليونش وتكبد سبيلها قاضي أزمور

أبو عبد الله الكميلي حيث جعل لبليونش كلها عذابا لا لذة فيها ولا نعيم، فكان الماشي في طريقها كتب عليه العذاب، فهو يخوض ما كتب عليه، ثم يعرض بجبل موسى الذي شبهه بالعقاب فوقها، يقول:

بليونش كلها عذاب

فالشئ في سبيلها عقاب

عياض، والكميلي، والمنصفي، والحلوي، وغيرهم، وفيما يأتي عرض لبعض قصائدهم، لكن قبل عرض هذه القصائد لا بد من رصد الاتجاه العام الذي يطفئ على هذه القصائد.

والنظرة العجلى فيما قيل من الشعر عن بليونش تفيدنا أن الشعراء انقسموا ما بين ناظر إليها بعين الرضا، مادح لها مدحا مطلقا، متفنن بجمالها الخلاب، وحسنها الفياض، وطبيعتها الغضة النضرة، غاضا الطرف عن مساوئها وعيوبها، وقسم ثان يبدأ بذم طريقها الذي يتأرجح فيه الراكب من صعود إلى نزول، ومن يمنة إلى يسرة، ثم يُقنّى بالثناء على هوائها النقي وخضرتها الماتعة، وهذا المدح في نظري أبلغ من الأول؛ لأنه يبين العيوب والمساوئ، ثم يذكر المزايا والحسنات، وبالتالي فتلك العيوب منغمسة في

مزايا الفضائل غارقة في بحر المزايا والحسنات، فلا وجود لها في عين الحقيقة.

أولا- المدح المقيد:

بالمقارنة مع القسم الثاني نجد أن هذا القسم قليل، فحسب ما وصل لنا من الشعر نجد أن ثلاثة أو أربعة من الشعراء هم من قصدوا هذا السبيل في المدح، وهو طريق محمود كما قلنا.

ولقد تزعم هذا الاتجاه القاضي

عياض - رحمه الله - رغم أنه لم يوجد له

- حسب ما وصلنا - إلا بيتان هما أشهر ما قيل في طريق بليونش وشدة صعوبته، يقول:

بليونش جنة ولكن

طريقها يقطع النياطا

كجنة الخلد لا يراها

إلا الذي قد جاوز الصراط^(٢)



القاضي عياض



يَكْنُفُهَا شَامَخٌ مُنِيفٌ

كَأَنَّهُ فَوْقَهَا عُقَابٌ^(٥)

ثانياً- المدح المطلق:

لقد تولى هذا الاتجاه وزير غرناطة لسان الدين ابن الخطيب الذي كان ينزل على الشريف أبي العباس السبتي في قصره البديع الشكل والصنعة فيكرمه ويحسن ضيافته، فأولع ببليونش، وأعجب بنقاء هوائها أيما إعجاب، حتى بلغ به الوله إلى أن يفضلها على سائر الأماكن والبقاع، وأن يجعلها جنة الله في أرضه، ويشدد النكير على من عاب قرودها، بل إنه يجعل ذلك من فضائلها فقال:

بليونش أسنى الأماكن رفعة

وأجل أرض الله طرا شانا

هي جنة الدنيا التي من حلها

نال الرضا والروح والريحانا

قالوا القروء بها، فقلت فضيلة

حيوانها قد قارب الإنسان^(٦)

وتأمل هذا الإعجاب المفرط من ابن الخطيب وهو غرناطي، ولا يخفى أن غرناطة كانت فريدة العقد الأندلسي في وقتها، وهذا يدل على ما بلغته بليونش من الأوج الحضاري ومنافستها لحواضر الأندلس الكبرى، ووصف الأنصاري لبساتينها وجناتها ومساجدها وحماماتها مشهور مذاق.

ويؤكد ما قلناه قول أبي العباس الينشتي وهو في بغداد وقد حركه الحنين والشوق إلى بليونش:

أبليونش لا جف نبت رياضها

وجاد على مغانها صوب السحاب

فما شعب بؤان ولا الغوطة التي

زهت برياض بينها ومذائب

بأحسن من مراك والبحر معرض

وقد جال فيه الطرف من كل جانب

ويزيد تأكيد حبه لبليونش التي لا يرضى بها بديلاً ولا يملأ عينه غيرها شرقاً أو غرباً فيقول:

لقد طفت في شرق البلاد وغربها

فجانب طرقي غير تلك الجوانب

وما عهد (أويات)^(٧) لدي مذممولا ذكر (ميمات)^(٨) علي بذاهب

فكم لي بها من لذة مع معشر

يحيون بالريحان يوم السباب

كرام نمتهم للمعالي أكارم

حسان الوجوه والحلي والضرائب

سلام عليهم ما حييت فإني

أزيد لهم حبا بطول التجارب^(٩)

أما المنصفي -وقد تقدم شعره- فقد افتتن بها أيما افتتان، وولع بها حتى بلغ به الولع مبلغه، لبيت ما يكتنه نفسه من أهازيج الوله وأغاريد الحب نحو بليونش، فيقول في قصيدة مثقلة بالصور البيانية المبدعة:

انظر إلى نضرة زهر الربا

كأنه وثني على كاعب

ومتع الطرف ببليونش

ومائها المنبعث الساكب

تشاركته والحسن في وصفها

تشارك العين مع الحاجب

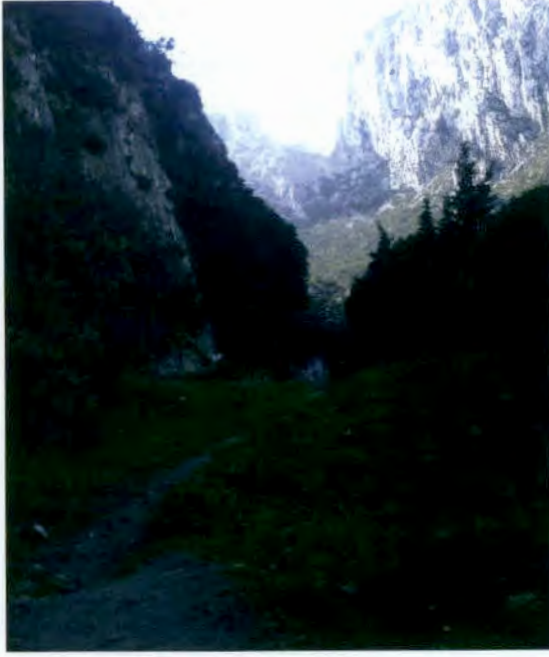
وقد أرتنا اليوم من حسنها

ما لم يكن في زمن الحاجب^(١٠)

ولا زال يعدد مزايا طبيعتها ومدى تأثيرها وفعلها في النفوس، وأنها تملك على الإنسان لُبّه وقلبه فلا تدع له مجالاً إلا أن يفرم بها من غير طواعية، حتى إنها من بهائها ورونق جمالها لتفسد توبة التائب، وتعيد الشيخ لزمن صباه...

فعالة بالطبع في أهلها

ما تفعل القهوة بالشارب



الحلوي، التي هي بمثابة نهر دفاق وجدول سيال
تجتمع فيه بالإضافة إلى «وصف خفاجي» لجمال
بليونش ورونقها وحسن منظرها، ملحمة تاريخية
تحكي تفاصيل الفتح الإسلامي..

بليونش ماذا صنعت بقلبي المُنْصَنِي الشُّرُودُ
أيقظت فيه مشاعرا من قبلُ كانت في خُمُود
يا ذرة لَماعة في تاج مغربي العتيد
يا أَلْف ثَغْر باسم يا طُلعة الفجر الوليد
رَوضاتُك الخُضراءُ فيضٌ من فَراديس الخلود
مَجْدتُ مَنْ غطا ثراك فنام في خُضر البرود
وأفاض فيك الماء دفاقا كأنهار الخلود ثم
بعد هذا الوصف يخلص الشاعر إلى
الحديث عن الحملة التاريخية الكبرى التي
تذكرنا بأمجادنا الأوائل الذين حملوا مشعل
الجهاد، فيستدعي التاريخ ليُجعل من بليونش
شاهدة عيان للفتح الإسلامي مذكرة بأبطاله
ورجاله: كطارق بن زياد وموسى بن نصير ..

تَذَكَّرُ الشَّيْخُ زَمَانَ الصُّبَا
وَتُفْسِدُ التَّوْبَةُ لِلتَّائِبِ
ومما يؤكد افتتاح المنصفي بهذه القرية
الساحرة قوله:

انظر إلى بهجة بليونش
وحسن ذاك المنظر اللامع
تحكي الثريا عندما أُسْرِجت
بليلة الختم في الجامع^(١١)

ولقد حن عبد المهيمن الحضرمي لموطنه سبته،
وتساوى عنده الحنين إلى بليونش، فتجده يذكر
أياما غرا قضاها ببليونش البهية طوتها الأيام
وعفت عليها صروف الدهر، يقول:

ويا أيام بينيونس
لقد عدت عنها صروف العواد
أدركت من «لبنى» بها كلما
لبانة وساعدتني «سعاد»
ونلت من لذات دهمري الذي

قد شيبته وللأمانى انقياد
فتأمل في التلاعب بالألفاظ في قوله: لبنى ولبانة،
وقوله: ساعدتني سعاد، بل إنه سيبدع أكثر في قوله:
منازل ما إن على مُبدِلها

مكان اللام في ها انتقاد^(١٢)
فهذه المنازل إنما هي في الحقيقة منازة، وليست
منازل فقط، لذلك لا انتقاد على من جعل الهاء
مكان اللام، وهذا التلاعب في الألفاظ وهذه الأنواع
من الصور الجمالية كثيرة في شعر الأندلسيين،
تكاد تكون خاصة بهم، وهي حال طبيعية نتجت من
أثر بصمة البيئة الأندلسية على نفوسهم الرقيقة
وحسهم المرهف.

ومما يشاكل هذا النوع من التصوير الحساس
لطبيعة بليونش قصيدة «بليونش» للشاعر محمد



لتتوغل في حكايات عن جنود الفتح المُكبرين والمهللين من فوق الجبال، واصفة استبسالهم وصمودهم من أجل نشر دين الإسلام تجمعهم في ذلك أصرة الأخوة الإيمانية..

بليونش قصي على الأجيال أمجاد الجدود
واحكي لهم عن طارق مُتحفزا بين الجنود
موسى يُطل مُكبِرا ومُهَللا فوق النجود
ورجال موسى في جبالك رابضات كالأسود
والله أكبر في مآذك المهيبة كالرعود
ورباك لم تخضر إلا بالركوع وبالسجود
ورباك يا بليونش قمم الشَّهامة والصمود
أسد متي انتفضت ستعصف بالغزاة وبالقيود^(١٢)
وقد اختصر الشاعر هذا المعنى كله في

قصيدة بعنوان «سلام» حيث يقول:

وتحكي عن الفتح أسطورة تُباري الفتوح بها أمتي
ثم يرجع الشاعر إلى مدح بليونش مطنبا في مدحها وذكر محاسنها فيقول:

يا أخت «كِتَان»^(١٤) رباك عرائس خضر النُّهود
وضحائك أعراس ورقصات على أنغام عود
والليل فيك قصائد وقلائد في خير جيد
ولقد أمتع الشاعر وأبدع في قوله:

لو كان لي رأي يطاع وكان في الدنيا خلود
لاخترتها ولكان في روضاتها الغنا قعود
فلو كان الخلود ممكنا لاختار أن يُخلد في بليونش،

ولما رضي بغيرها، وهذا شبيه بقول الينشتي:

لقد طُفَّت في شرق البلاد وغربها
فجانب طري غير تلك الجوانب
وقول ابن الخطيب:

بليونش أسمى الأماكن رفعة
وأجل أرض الله طرا شانا
وتأمل كيف كاد الشعراء أن يجمعوا على هذا

المعنى، مع أن المتردد إلى بليونش اليوم لا يجد فيها ما ذكرنا من طبيعة خلابة وجنان وارفة الظلال، وما كان فيها من البساتين التي تأخذ بالألباب والعقول، والذي يفسر هذا ما ذهب

إليه المؤرخون من وقوع زلزال^(١٥) هز أرض بليونش فلم يترك لها من المحاسن والأوصاف إلا أطلالا يستدل بها على بهائها وجمالها، وهذا ما عبر عنه أستاذنا الأديب سيدي أحمد بنياية في قصيدة ملؤها الحسرة والأسى على تلك المعالم والآثار:

أودى اليباب بزهرة محمولة
في النعش لا خيرا من الجوزاء
وها على تلك المعالم إنها

كانت معالم روضة غناء
ثم إن الحلوي يُعرض بالشعراء قبله، ويعيرهم بأنهم ما أخلصوا في حبهم لهذه العروس، وهذه الدرة المصونة، واللؤلؤة المكنونة، فلو كان حبهم صادقا كما زعموا لما عابوا طريقها، وإذا كان طريقها يقطع النياط فهو يتباهى بأن تكون بليونش هي نياط قلبه، يقول:

ما أخلصوا في حُبهم شعراء هاموا من بعيد
وتهيَّبوا في سيرهم خطر السُّلُق في النجود
أنت النياط إذا قُطعت نياط قلبي في صعود
يا ألف ثغر باسم يا طلعة الفجر الوليد

ويختم قصيدته بأبيات يبين فيها أن بليونش قد جمعت المحاسن من أطرافها، فهو يخاطبها قائلا: لا تطمعي في المزيد من المحاسن، فقد بلغت الذروة في



لسان الدين ابن الخطيب

الجمال والرونق والبهاء وشابهت الأندلس في جمالك
وحسنك..

لا تطمعي وقد اكتسيت من المحاسن في المزيد
جاوزت كل تصوري يا أخت أندلس العتيد
لا تحرسينا في الحدود فقد خرجت عن الحدود
قولي لسبته عودها عرس وعيد أي عيد

ثم إن الشاعر الحلوي لم يجعل قصيدته هذه
في بليونش بيضة ديك، بل تكرر مدحه لها وذلك
في قصيدة بعنوان «سلام» التي جعل بليونش فيها
متحدية للخيال بما تكتسيه من تركيبة طبيعية غنية
بالخضرة وجداول الماء المناسبة...

وبليونش تتحدى الخيال وترفل في سندس الخضرة
جداولها كوثر مستباح وروضاتها غرف الجنة
تطل على البحر في كبرياء وتربض كالليث في عزة^(١٦)

وإذا استمطرنا أنواء قرائح أبناء بليونش فإننا
سنجد من أنبائها البررة الأستاذ أحمد محمد بناية
الذي بث لواعجه الحرى في غير ما قصيدة عن
بليونش، متحسرا على ما آلت إليه الآن بعدما كانت
روضة غناء، مستحضرا تاريخها العتيد وماضيها
التليد الذي طالاه النسيان فعات فيه وشوه معاملة،
وطمس حسنه، يقول:

أجيد المرشدين لأنت جيد

خليق أن تتيه بك الصحاب

أتوا بليونشا حبا وشوقا

بأفئدة دعائمها الكتاب

عهدك مجلسا بالعلم تشدو

بلابله فأخرسني الجواب

ثوى بالأمس فيك عصور مجد

وفكر لا يشوّهه استلاب

ثم يحن إلى ذلك العهد المجيد الزاهي بمجالس

العلم والذكر فيقول:

على نهج الكرام وعز دار

تثوق لنا وللدكرى التهاب

إلى بليونش يهفو الحنين

بأنجرة^(١٧) تناسها أنسياب^(١٨)

ولعل القصيدة التالية هي التي تظهر فيها هذه
الحسرة على بليونش الغضة الندية التي فتنت الشعراء
والكتاب، وتبين مدى فظاعة جرم إهمالها ونسيانها،
كما نسيت أماكن قبلها، والشاعر كثيرا ما يستدعي
الأحداث التاريخية ليقارن بين بليونش الأمس وبليونش
اليوم، فقد أشار إلى الساحل وهو مكان فسيح بُني فيه
قصر أبي العباس السبتي الشهير، الذي لم يبق منه
اليوم إلا أطلال بائسة تحمل بين جدرانها الكثير من
الأسئلة التي أحرس التاريخ عن الإجابة عنها..

بليونش قصي على الحمام^(١٩)

ماذا جرى بسبته للماء

واحكي لنا عن ساحل^(٢٠) مستصرخا

حدو العلوج بحلقة الأعداء





الجانب البيئي التي كانت تضطلع به قرية بليونش، بالإضافة إلى الجانب الحضاري الذي كانت تتمتع به القرية، وكذا الجانب العلمي والثقافي على مر التاريخ والعصور، كل هذا جعل منها قبلة الشعراء والأمراء، وقع حبها في قلوبهم من غير استئذان، كما لا ننسى أنها كانت بوابة الفتح الإسلامي الأول إلى الأندلس، فلا زال جبل موسى بن نصير شامخا هناك مقابلا لجبل طارق، يُرى كلاهما من الآخر رأي العين، لذلك أحسب أن هذه الأبيات عززت المجال الأدبي أولا، ثم المجال التاريخي، وذلك لما حملته بين معانيها من إضافة نوعية لتاريخ الفتح الإسلامي مروراً بالتاريخ الأندلسي، وانتهاء بحسرة الاستعمار الإسباني للأندلس، وأخيرا لمدينة سبتة ردها الله على أهلها ■

أودى اليباب بزهرة محمولة
في النعش لا خبرا من الجوزاء
وأها على تلك المعالم إنها
كانت معالم روضة غناء
وفي قصيدة أخرى يذكر بيتا يفيض أسى وأسفا على ما جنح إليه الأعداء من تهميش المناطق المستعمرة بعد نهب خيراتها ..
وهمسنا الأعداء حتى تصاغرت
بنا الرَبوة الخضرا وعدنا إلى السفلى

وباستعراض هذه المقطوعات الشعرية نتبين بعض ما كانت تحظى به هذه القرية العجيبة في مختلف جوانب الحياة؛ إذ تحيلنا الأبيات السابقة -على ندرتها- إلى جوانب تاريخية مهمة، بحيث تبرز لنا

الهوامش:

- (١) بليونش، ويقال لها أيضا بنيونش قرية محاذية لمدينة سبتة.
- (٢) انظر موقع وزارة الثقافة المغربية: <http://www.minculture.gov.ma>
- (٣) شهاب الدين أحمد المقرئ، أزهار الرياض، ج ١، ط اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، ص ٣٤.
- (٤) المقرئ، مصدر سابق.
- (٥) المقرئ، مصدر سابق.
- (٦) المقرئ، مصدر سابق.
- (٧) اسم مكان قرب بليونش .
- (٨) اسم مكان قرب بليونش .
- (٩) الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي، تاريخ سبتة، ط دار الثقافة، الدار البيضاء، ص ١٠٣-١٠٤.
- (١٠) الحاجب هو حاكم الأندلس المنتصور ابن أبي عامر الملقب بالحاجب.
- (١١) المقرئ، مصدر سابق ٣٥/١.
- (١٢) الأستاذ بنتاويت، تاريخ سبتة.
- ص ١٥١، والوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ج ٢، ط دار الثقافة، ص ٤٤٧.
- (١٣) الشاعر محمد الحلوي، ديوان «شموع»، ط النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص ٨٨.
- (١٤) مكان قرب تطوان فيه منزهات خضراء وبساتين غناء .
- (١٥) وقد ذكر القاضي محمد السراج في كتابه «تاريخ سبتة بالأثر والمأثور»، ص ١٥٣: أن قرية بليونش وقع بها زلزال بعدما خرج البرتغال عنها فغير منظرها وأزال نضرتها، ولم تبق إلا أطلال هنا وهناك. ط الهدية، تطوان. وانظر أيضا: «زلزال بلاد المغرب العربي في المصادر الإسلامية» - ق ٣ ق ٣٣ = ق ٣ ق ٣٣ - للدكتور خالد يونس الخالدي، حويليات كلية الآداب/ جامعة عين شمس، المجلد ٤٠ عام ٢٠١٢م
- (١٦) القاضي محمد السراج، مصدر سابق، ص ٨٥.
- (١٧) قبيلة بشمال المغرب تخرج بها العديد من الفقهاء والعلماء في شتى الميادين.
- (١٨) من كتابه: «ياقوتة المقتطفات الستة لطلاب بليونش وسبتة» مخطوط. نحاول إخراجها للوجود.
- (١٩) معركة شهيرة وقعت أحداثها بقبيلة أنجرة إبان الاستعمار الإسباني لشمال المغرب.
- (٢٠) الساحل مكان لا زال يعرف بليونش حيث كان قصر الشريف أبي العباس السبتي الذي كان ينزل عليه الأعيان والوزراء، وقد نزل عليه ابن الخطيب غير ما مرة، ولا زالت أنقاض هذا القصر شاهدة على عظمته، وأهل بليونش يسمون هذا المكان اليوم بالسويحلة. أزهار الرياض ٣٦/١ - ٣٧، واختصار الأخبار للأندلسي، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط الخزنة الحسنية، ص ٥٦.